روح الاستهتار في هذا العصر

وأسباب انتشارها بين الشبان

للفيلسوف برتراند رسل

— ١ —

ما من انسان يزور الجامعات في غرب اوربا الآن وتروعه فيها روح الاستهتار التي تسود شبان اليوم سيادة لم تكن لها في الماضي من الزمن ، مكانتها الحاضرة — ولكننا نستثني من هذا الحكم روسيا والهند والصين واليابان ، وربما جاز لنا ايضاً ان نضيف الى قائمة هذه البلدان المستثناة بلاد التشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وبولندا وجانباً من المانيا — ولكن مما لاشك فيه ان هذه الروح من السخرية تسود اليوم شبان انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة

الاستهتار

وقد عالج المستر كرتش هذا الموضوع في كتابه «مزاج العصر» وخرج من بحثه بعدد من الاسباب التي يرد اليها تلك الروح المستهترة التي تسود العصر — ولكن يلوح لنا انه تقصى اسبابه ، التي احصاها ، من مصادر يتكلم اهلها اللغة الانكليزية فقط ولهذا فقد نرى ان الرجل لم يخرج باستنتاج سليم من نواحي النقص . ولكي نتفهم اسباب الاستهتار الفاشية في روح الشبان الغربيين نضطر ان نتفهم ايضاً اسباب عدم فشو الاستهتار في روح الشبان الشرقيين

والشبان في روسيا يخلون من روح الاستهتار لان نفوسهم مليئة بالايمان بفلسفة الشيوعية ، ولان بلادهم غنية بمصادرها الطبيعية مما يمكن استغلاله خير استغلال اذا اتجهت اذهان ابنائها الى هذه الناحية ، وعلى هذا فالشبان في روسيا يجدون امامهم سبيلاً من الحياة جديراً بعنايتهم وجهودهم ، وحين يشغل المرء في تحقيق فكرة خيرة ترمي اليها حياته او حياة امته وينهمك الانهماك العملي الحق في اشتغاله ذاك ، ينصرف الانصراف الكلي عن التفكير بغاية الحياة ومن اين والى اين تنتهي ، وعلى هذا فالشبان الروس يتحمسون في اعمالهم يزجيهم ايمان قوي بمبادئهم التي يعملون في سبيلها بجهد وعزم

وجماع ايمان الشاب الهندي هو لؤم انكلترا التي تفرض سيادتها على بلاده فرض العنيد الجبار . وكما يخرج البعض من «ديكارت» وحياته بفلسفة قائمة بذاتها ، فكذلك يخرج

الهندي من ايمانه بلؤم انكلترا بعقيدة هي الاخرى فلسفته في الحياة، وبموجب هذه العقيدة يرى الهندي ان مجرد كون انكلترا مسيحية فالاسلام او الهندستانية او غيرهما من الاديان الاخرى هو الدين الحق ، ولئن كانت الانكليز امة مال وصناعة فواجب الهنود ان يستعيضوا عن الصناعات الانكليزية بمغازلهم الوطنية او ان يدخلوا على الواردات الانكليزية تعاريف جمركية من شأنها ان تصد جريان تلك الصناعات الى بلادهم وحماية الصناعات الوطنية ضد الاغارات الصناعية الاجنبية، ولئن كانت انكلترا تملك الهند بقوة المادة فعلى الهنود ان ينشدوا قوى الروح حتى لا يتصلوا والانكليز بسبب او يكونوا منهم بسبيل

ومطاردة الحكومة للحركة الوطنية في الهند هي وحدها كافية لجعل الهنود ابطالاً ، وعلى هذا فمشكلة الهند الوطنية تشغل شبانها عن روح الاستهتار . وبغض الصين للانكليز له شأنه هو الآخر هناك، ولكن ليس له خطره الذي هو عليه في الهند لان الانكليز لم يستعمروا الصين ، والشبان الصينيون يمزجون وطنيتهم بنزعة مخلصة صوب الاخذ بأساليب الحضارة الغربية كما كانت عليه الحال في اليابان منذ خمسين سنة مضت

وروح الاستهتار في الصين كانت قد سادت رجال الامبراطورية ثم انحدرت منهم الى الرجال الحربيين الذين فصلوا الدولة منذ سنة ١٩١١ عن الامبراطورية ولكن ليس للاستهتار مكانتهُ في عقول الشبان المصريين . وحالة الشبان في اليابان اليوم لا تختلف عن حالة الشبان في اوربا بين سنة ١٨١٥ ، سنة ١٨٤٨ ، وألفاظ الحرية، والحكومة النيابية وحرية التفكير والتعبير وما الى ذلك ما تزال الفاظاً لها في اذهان اليابانيين اثرها الفعال ، والجهاد في سبيل نصرة هذه المبادىء التي تمثلها تلك الالفاظ على تقاليد الاوتقراطية والاقطاعية وغيرها، فيها الكفاية لصرف اذهان الشبان عن كل ما عداها

— ٢ —

ولنا ان نسأل الآن — لماذا يسود الاستهتار نفوس شبان اليوم ؟ والذي يلوح لنا ان الشبان لا يعجزون فقط عن الايمان بما يقال لهم ، وانما هم عاجزون عن ان يؤمنوا بأي شيء كان . وما علة ذلك ؟ لنعالج بعض المثل العليا التي كانت تثير في الماضي حوافز الاخلاص في القلوب ثم اصبحت اليوم وليست لها قوتها الماضية وشدة اثرها في النفوس . ولنذكر من تلك المثل العليا الدين ، والوطن والارتقاء ، والجمال ، ثم الحقيقة — ولننظر فيها حتى نرى ما خطر هذه المثل ولماذا فقدت من مهابتها ومقامها ما فقدت ؟

To: www.al-mostafa.com

الدين

العلة هنا عقلية واجتماعية معاً. ولاسباب عقلية نجد نحن ان قليلين من الناس الاكفاء لهم اليوم عين حماسة الايمان الديني التي كانت عليها حماسة رجل مثل سانت توماس مثلاً. والاله عند معظم العصريين هو شيء غامض بعض الغموض، وعرضة لان ينزل الى مرتبة اعتباره «قوة الحياة» او هو قوة والسلام!

وحتى جماعة المؤمنين تراهم مشغولين بأثر الدين في هذا العالم اكثر من اشتغالهم بالعالم الآخر الذي يؤمنون به، وتراهم اقرب ايماناً بأن الله فكرة مفترضة لاتخاذها وسيلة الى تحسين العالم، منهم ايماناً بأن هذا العالم قد وجد لمجد الله — وفي محاولتهم اخضاع الله لحاجات هذا العالم الارضي سعة للشك في براءة ايمانهم — وقد يلوح لنا انهم يعتبرون الله اعتبارهم «يوم السبت» اعني انه جعل للانسان، لا الانسان للسبت

وهنالك اسباب اجتماعية من شأنها ان تجعلنا نرفض الكنائس كأسس للمثل العليا العصرية — فهذه الكنائس وما تتصل به من الاملاك الموهوبة والموقوفة على مصالحها، تضطر ان تدافع عن نظرية الملك الخاص — وفضلاً عن ذلك، فللكنائس تشديد في قوانينها الاخلاقية ترفض بموجبها كثيراً من مسخرات الحياة التي يعتبرها الشبان اشياء غير مضرة، ثم هي تفرض الواناً من العذاب والقصاص يراها الشاكون مظاهر من القسوة لا مسوغ لها — وأنا اعرف بعضاً من الشبان المتحمسين ممن يقبلون تعاليم السيد المسيح قبول الرضى والاعجاب ولكنهم من الناحية الاخرى لا يتساوقون مع تعاليم المسيحية الرسمية وما ترسمه الكنائس من خطط وأساليب

الوطن

لقد كانت الوطنية في ازمنة كثيرة وأمكنة كثيرة عقيدة تنجذب اليها خيرة العقول، وقد كانت هذه حالة انكلترا في ايام شكسبير، والمانيا ايام فخت، وايطاليا ايام ماتزيني، وهي ما تزال كذلك في بولونيا والصين ومنغوليا الخارجية. والوطنية ما تزال عظيمة النفوذ في الامم الغربية، فهي التي تسود السياسة والنفقات العامة، والتسليح وما الى ذلك — الا ان شبان العصر عاجزون عن ان يتخذوا هذه الوطنية كمثل اعلى. وقد تكون الوطنية مثلاً اعلى لاي الامم المستعبدة ولكن متى نالت الامة حريتها اصبحت الوطنية والتشدق بها ضرباً آخر من ضروب الارهاق. ولنذكر معاهدة «فرساي» مثلاً على ما قدرناه من ضرر الوطنية حين تسود الامم الحرة، فاولئك الجنود الذين كانوا يذبحون ذبح الاغنام في ميادين القتال جهاداً ضد الروح الحربية كما قيل لهم وجدوا انفسهم بعد معاهدة «فرساي» انهم انما كانوا يقودون امهم الى اعتلاء عروش التحكم الحربي وانماء تلك الروح الخبيثة، فحق للشبان ان يبغضوا الوطنية وان يجدوا فيها عامل فساد المدنية الحاضرة

الفيلسوف برتراند رسل

مقتطف فبراير ١٩٣١ امام صفحة ١٦٥

الارتقاء كان الارتقاء مثلاً كاليًّا عالياً في نظر ابناء القرن الماضي. ولكنه مثل سخيف غير جدير بالالتفات في نظر شبان العصر . فالارتقاء الذي يقاس انما هو ارتقاء في الشئون التافهة كعدد السيارات التي تخرجها المصانع او عدد لوزات الفول السوداني التي تستهلكها الامة . اما الامور الجديرة بالعناية ، الاساسية في الارتقاء، فلا يمكن قياسها . فهي اذن لا تواتي المعلن والمنتج في ترويج اعمالهما . كان شكسبير يقيس تفوق كل عصر باسلوبه في نظم الشعر (الانشودة ٣٢ من شعر شكسبير) ولكن هذا القياس عتيق لا يتفق وروح الحضارة في نظر ابناء العصر

الجمال يوجد في مشكلة الجمال اليوم شيء يجوز لنا ان نسميهُ «مودة قديمة» وان كنا عاجزين عن ان نذكر علة ذلك . فالرسام اليوم يغضب ان هو اتُّهم بانهُ ينشد الجمال، ومعظم الفنانين في هذا العصر تراهم وكأنما هم يثيرهم حافز من السخط على العالم ولهذا يرغبون في التعبير بفنهم عن حاسة ألم اكثر من رغبتهم في التعبير عن حالة رضى واطمئنان

ثم انظر هذا الذي يلاحظهُ المستر « كرتش » في هذا الشأن : — فهو يقول انهُ يوجد كثير من الوان الجمال مما يحتاج معها المرء الى اصطناع اسلوب من الاعتزاز بالنفس لا يتسنى لانسان العصر الحالي

فرجل وطني من سكان مدينة اثينا او مدينة فلورنسا في الماضي ،كان يستطيع من دون كبير عناء ، ان يشعر في نفسه بانهُ شيء ذو خطر ، فقد كانت الارض في نظره مركز الكون كله ، والانسان الغاية من الخلق ، ومدينتهُ كانت تُخــرِجُ المثل الاعلى للانسان وكان هو نفسه من خيرة ما تخرجه مدينته من الناس ، وعلى هذا فقد كان يشعر في نفسهِ ان تلك العواطف التي تثور في نفسه بدوافع شخصية قمينة بان تصور في الفاظ من الشعر الخالد

واما الانسان العصري فحين تصيبهُ الاقدار بمساوئها فهو لا يشعر بنفسه اكثر من انهَ عدد صامت في ذلك السجل من الاحصاء الضخم لا اكثر ولا اقل . وهل الانسان في اعتبار العصر الاّ حيوان حقير يدب بين فترتين من السكون الابدى ، الواحدة قبل الولادة والاخرى بعد الموت؟ وما عسى ان يهمّهُ الماضي او المستقبل وهذه هي العواطف التي قد تثور او لا تثور في صدر ذلك الحيوان الحقير الذي يدب لحين قصير ثم يختفي ؟

الحقيقة كانت الحقيقة فيما سلف من الايام شيء مطلق خالد الهي ، ولكن العلوم الحديثة من مثل الفلسفة العملية ، والمسلكية ، والسيكولوجية والنسبية وغيرها قد قتلت ذلك الاعتقاد بالحقيقة قتلاً . وقد كان الانسان في الماضي يعبد الحقيقة ولكن الحقيقة اليوم شيء نسبي وليس من السهل ان يقاد الانسان الى عبادة الشيء النسبي

فناموس الجاذبية في نظر ادنغتون ليس اكثر من شيء متفق عليه للقياس وليس صحّ من المذاهب الأُخرى كما ان المقياس العشري ليس اصحّ من المقاييس الأُخرى

وهذا الذي كان يقوله « سبينوزا » عن القانون الاخلاقي ومصدره عن قوة خفية لديهِ ، تستطيع اليوم ان ترده أنت الى اسباب اقتصادية حتمها نشوء الجماعات البشرية كما يقرر « ماكس نوردو » في كتابه « الآداب ونشوء الانسان »او ان تجاري« فرود » فتقرر ان وراء هذه الظواهر التي تسيطر على نفسيتنا اشياء في حقيقتها هي منازع جنسية

— ٣ —

الى هنا كنا نعالج مشكلة الاستهتار من وجهة عقلية ، اعني نعالجها كشيء له اسبابه العقلية. ورجال السيكولوجية الحديثة لا يفتأون يذكرون لنا ان الايمان قلما يصدر عن اسباب عقلية ، وهذا الحكم يصدق ايضاً على عدم الايمان ولو ان جماعة الشاكين يتجنبون هذه الحقيقة . وأسباب اي شك منتشر ترتد في الغالب الى اصول اجتماعية اكثر من ارتدادها الى اصول عقلية — والعامل الرئيسي في هذا الشك هو العزاء عن القوة المفقودة، ورجال النفوذ ليسوا برجال استهتار ما زالوا قادرين على تنفيذ مبادئهم بما لديهم من قوة ، واسرى الظلم والاستبداد لا يستهترون لان نفوسهم مليئة بالبغض والبغض مثل غيره من الشهوات القوية يسحب معه جيوشاً من المعتقدات المقيمة . ولقد كان لرجال الفكر اكبر الاثر في جريان حوادث الايام قبل انبعاث التعليم والديمقراطية ومنتجات المجموع ، ولم يكن ذلك الاثر ليقل نفوذه حتى ولو طاحت رؤوس اصحابه عن اجسامهم — اما رجل الفكر اليوم فانه يجد منزلته غير منزلة رجال الفكر بالامس

فليس من الصعب اليوم على رجل الفكر ان يضمن لنفسه عملاً منتجاً ودخلاً ذا سعة من طريق بيع مواهبه الى غني من الاغنياء وذلك بأن يكون من مروجي الدعاية لذلك الغني او مهرجاً له . وقد كان من اثر منتجات المجموع والتعليم الابتدائي ان الغباء قد احتمى بما لم يحتمِ به في اي عصر من العصور الخالية منذ ان قامت الحضارة الانسانية . ولما قتلت الحكومة القيصرية اخا « لنين » لم تجعل « لنين » رجلاً مستهتراً . وانما هي بعثت في نفسه مورداً من البغض لا ينقطع العمر كله وقد انتهى الامر « بلنين» ان فاز اخيراً بالنقمة — ولكن في البلدان الاوربية الاخرى التي يسودها النظام والثبات في الحكم يندر ان يقع فيها من الحوادث ما يستوجب بغضاً كذلك البغض الذي كان يستشعره « لنين» للحكومة القيصرية — كما يندر ان تسنح للمرء فرصة انتقام كتلك الفرصة التي سنحت لهُ

واعمال رجال الفكر اليوم يرسمها لهم رجال الحكومات او رجال المال وهي قد تكون اعمالاً حقيرة في نظر اولئك الرجال ولكنهم يستعيضون عن سخف ما يرونه في اعمالهم التي يؤمرون بفعلها ، بهذه السخرية التي تسودهم في تأدية تلك الاعمال . وليس من ينكر انه توجد اعمال تستوجب كل رضى القائمين بها وليست تثير فيهم شيئاً من السخرية ، من مثل الاعمال العلمية مثلاً والفن المعماري في امريكا ، ولكن ما قولك في شاب ربي تربية ادبية حتى بلغ سن الثانية والعشرين فوجد نفسه على جانب كبير من المهارة التي لا يعرف كيف يستخدمها فيما يفيده ويعلي شأنه ؟

فاذا صحَّ هذا الذي ذكرناه فروح الاستهتار العصرية لا يمكن ان تعالج بالتبشير ، ولا بان نقيم لشبان العصر مثلاً عليا افضل من تلك المثل التي يجمعها لهم رجال الدين ورجال التعليم من بين ركام الخرافات ، وانما يكون علاج ذلك من سبيل رسم خطط حياة لهم تستغرق قوى منازعهم المبتكرة ، ولسنا نجد في هذا الشأن خيراً من كلمة دزرائيلي وهي « ربوا معلمينا » وانما يتحتم في هذه التربية ان تكون صحيحة الاحوال لا كضروب التربية المعروفة والكثيرة نواحي النقص سواء في ذلك تربية ابناء العمال وابناء الاشراف . ويجب ان تكون تربية يعطى فيها مقام رفيع للثقافة العالية فلا يستغرق جهود الطلاب الغرض النفعي الذي يرمي الى اخراج قدر من البضائع والمصنوعات ثم لا يجد احد من الناس في وقتهِ متسعاً كافياً للتمتع بها

فالطبيب مثلاً لا يسمح لهُ بممارسة مهنتهِ حتى يعرف شيئاً عن جسم الحي واما الرجل المالي فله تمام الحرية في ان يعمل في دائرة اعمالهِ المالية دون ان تكون لهُ اية خبرة بمختلف الوان تأثيرات اعمالهِ ونتائجها اللهم الا خبرتهُ بتأثير ذلك في مصرفهِ

ما اجمل الحياة في نظر الرجل المالي مثلاً اذا حتم عليهِ ألاَّ يمارس اعماله ما لم يؤد امتحاناً في العلوم الاقتصادية وفي الشعر اليوناني . . . وعلى رجل السياسة ألاَّ يحترف السياسة حتى تكون له معارف كافية في علوم التاريخ وفن الرواية الحديث

الحياة في العصر الحديث معقدة كل التعقيد كثيرة الفروع مشتبكتها لكثرة الاعمال الكبيرة المنتظمة . ولكن الرجال الذين يديرون هذه الاعمال لا يدركون جزءًا من الف جزء من آثار اعمالهم قريبة كانت او بعيدة . كان رجال السياسة في كل العصور على جانب كبير من الغباوة . ولكنهم لم يكونوا في عصر سابق في قوتهم هذا العصر . فيهمنا — وهذه قوتهم — ان يكونوا اذكياء . فهل يتعذر حلّ هذه المشكلة ؟ كلاَّ ! ولكني آخر من يقول بانها مشكلة سهلة

يوسف حنا